0

الفكر المنهجي الأنتروبولوجي الإسلامي –البيروني أنموذجا–

أ. عبد الباقي غفور
جامعة تلمسان

يقول ديكارت: "خير لك أن تترك البحث عن الحقيقة من أن تبحث عنها بغير طريقة."[1] من هنا تظهر أهمية الطريقة في البحث العلمي. إذ تعرف على أنها: "الوسيلة الفكرية التي يمكن التوصل بها إلى المطلوب ، و المطلوب في العلم هو الكشف عن الحقيقة و البرهان عليها."[2] و يتفق العلماء على تعريف المنهج بأنه: " تحليل منسق و تنظيم للمبادئ و العمليات العقلية و التجريبية التي توجه بالضرورة البحث العلمي أو ما تؤلفه بنية العلوم خاصة".[3]و من ثم ، فنجاح العلماء في الوصول إلى اكتشافات علمية إنما يعود إلى الطريقة و المنهج المتبع.

إن مشكلة المنهج هي مشكلة العلم في صميم كيانه ، و ذلك لأن تمام شرط قيام العلم هو أن تكون هناك طريقة نطوي تحتها شتات الوقائع بهدف تفسير ما قد يوجد بينها من روابط أو علاقات تنظمها قوانين ، و من ثمَ فإنه يمكن أن نفسَر تطوَر العلم عن طريق بيان دور المنهج العلمي في تحصيله ، إذ أن تقدَم البحث العلمي رهين بالمنهج ، فما تقدَم العلم في يوم من الأيام إلا بمنهج متَبع ، و ما تأخَر إلا بسبب غياب هذا المنهج.

و هكذا لا يمكننا الكشف عن قوانين سير الواقع ، إلا إذا احتككنا بهذا الواقع و بظواهره وقمنا بالتجارب و الملاحظة لهذه الظواهر في واقعها الحي.

و مثلما كان لعلماء المسلمين صولة و جولة في مجالات علمية شتى ، الشرعية، الطبيعية ، والإنسانية ، و في عصور كانوا فيها سادة العلم و سادة الموقف ، كان لهم شأن في منهجية البحث العلمي ، و قد يبرز ذلك جليا من خلال ممارساتهم الحقيقية لتلك المنهجية في أبحاثهم ، و كتاباتهم ، وشروحهم حول اكتشافاتهم العلمية.

يقول "جابر بن حيان" ، رائد الكيمياء الحديثة (721 – 815 م) في كتابه عن نتائج تجاربه العملية : " يجب أن تعلم أننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه ، أو ما قيل لنا و قرأناه بعد أن امتحناه و جرَبناه ، فما صحَ أوردناه، و ما بطل رفضناه." [4]

و إذا كان علم الإنسان "الأنتروبولوجيا" [5] يقوم على الملاحظة من الداخل على نطاق واسع في الثقافات الأخرى ، و الإفادة من المادة العلمية التي تجمع بالتحليل المحايد ، و بالرأي البريء من الهوى من بدايته ، و باستخدام الطريقة المقارنة ، فإن أبا الريحان محمد بن أحمد البيروني الذي عاش فيما بين النصف الثاني من القرن الرابع الهجري و النصف الأول من القرن الخامس الهجري أو (973 – 1048 م) ، يكون من أبرز الوجوه العلمية التي ولدتها الحضارة الإسلامية ، بل الحضارة الإنسانية ، وعالما من علماء الإنسان بأرقى المعايير المعاصرة. و كتابه " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة." سيبقى على مرَ الزمن واحدا من أهم المراجع عن الهند. و قد أخذ عن هذا المرجع ، حتى أشد علماء الهند المعاصرين دقَة و ملاحظة ، مثل " نراد شودهاري" (Nirad Chaudhari)

(1965). و بهذا يكون البيروني قد قام بوضع أساس علم الإنسان منذ نحو ألف عام قبل "مالينوفسكي" و "جيرتز".[6]

و لقد أجمع الباحثون العرب و المستشرقون على علوَ شأن البيروني بين الرحَالة و المؤرَخين المسلمين ، و أنَ منهجه قد تميَز على غيره في كثير من الأمور حتى اعتبره البعض منهجا علميا في وصف و دراسة الحضارات الإنسانية. و لقد أطلق "جورج سارتون" – مؤرَخ تاريخ العلوم الشهير– على النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي إسم "عصر البيروني". أما المستشرق الألماني" إدوارد سخاو" الذي ترجم كتاب البيروني" تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة،" [7] إلى الألمانية ثم إلى الإنجليزية يقول : " إنَ البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ."[8] و قال عنه الدكتور "سارطزن" مؤلف الكتاب المشهور" تاريخ العلم" : " كان البيروني باحثا ، و فيلسوفا ، و رياضيا ، جغرافيا من أصحاب الثقافة الواسعة ، بل من أعظم علماء الإسلام ، و من أكابر علماء العالم ، فلا وغرابة في أن تجد الأمم تتنافس على نسبته إليها ، فالأتراك ، و الإيرانيون ، و الروس ، و الأفغان كلهم يتنافسون عليه ، فقد كان كما قال "يوسف سخت" : "عبقريا مبدعا ذا بصيرة شاملة."[9]

و لقد ألَف البيروني كتبا كثيرة يبدو أنَ كثيرا منها لم يصل إلينا ، و يذكر"سيد حسين نصر" : " أنه يعرف للبيروني اليوم مائة و ثمانون كتابا." [10]و طبقا للدكتور فتح الله مجتبى فإنَ البيروني قد أعدَ في عام 428 هـ ، قائمة بأبحاثه تحتوي على أكثر من مائة كتاب ، سبعة و عشرون منها في "الهنديات".[11]

و بطبيعة الحال ، فإننا لا نريد الحديث عن جوانب ثقافة البيروني المتعدَدة ، و لا عن أبعاد شخصيته العلمية العميقة المتنوعة ، فهناك كتابات إسلامية و استشراقية عديدة يمكن الرجوع إليها ، إنما

نريد فقط أن نحصر أنفسنا في جانب واحد من جوانب تراث هذا العالم المبدع الكبير ألا و هو جانب مقارنة الأديان و بخاصة الناحية المنهجية منه.

لقد دخل البيروني مجال مقارنة الأديان أثناء نشاطه و تجواله كعالم و مؤرَخ يبحث في ثقافات الأمم و حضارات الشعوب و علوم البلاد و العباد. فكانت النتيجة هذه الكتابات التي تعتبر رائدة بكل المقاييس العلمية ، و تلك المناهج التي سبق بها العصور في مجال مقارنة الأديان.

و دراسة الجانب المنهجي لدى البيروني لا تحتاج إلى شيء آخر غير كتابه " تحقيق ما للهند" الذي اعتبره " لابوليه " بحق " من الدراسات الباكرة في مقارنة الأديان على الرغم من إيجازه و اقتصاره على ديانات الهند."[12] و البيروني نفسه صرَح في آخر مقدمة تحقيقه بأنَ التحقيق يغني عن كل ما كتبه من قبل في الموضوع.[13]

فإذا جئنا إلى هذا الجانب المنهجي لنرى جهوده فيه ، نجد أنه أبدع فيه إبداعا لم يسبق إليه. نستطيع أن نقول إنه استخدم المنهج التاريخي بالمعنى العلمي الدقيق و كأنه من رجالات هذا القرن العشرين ، و وظَف المنهج الأنتروبولوجي لخدمة منهجه التاريخي و كأنَه من علماء مقارنة الأديان في العصر الحديث ، بل إننا نرى منهج المقارنة التي تهدف إلى إبراز أوجه التشابه لأجل التوصل إلى مزيد من الوضوح و الفهم على أدق ما يكون و كأنه من مدرسة عالم مقارنة الأديان الكبير " يوخيم واخ " الألماني.

أراد البيروني بهذا الكتاب أن يطوَر معرفة المسلمين ببقية الأديان و قامت دراسته على **عمل ميداني** هو **المعاينة** ، و **الحكاية** ، و **المقارنة** ، و كان عمله بمثابة بحث استطلاعي مهَد لانتشار الإسلام في الهند. انتهج في الكتاب منهجا جنَبه التعصب و التعميم.

أولا: المعاينة:

لقد عاش البيروني في الهند و تجوَل في أرجائها ، و تعلَم لغتها و أتقنها ، و حاور علماءها ، واختلط مع عوامها ، و حضر أعيادها و مواسمها ، و شاهد معابدها كما شهد مناسكها. و قضى في كل ذلك ثلاثة عشر عاما حتى أذهل علماء الهند أنفسهم بسعة علمه ، و علو مرتبته ، و كمال فهمه ، و ترجم إلى العربية بعض كتبهم كما ترجم إلى لغة الهند بعض التراث اليوناني و الإسلامي حتى أظهر في النهاية كتابه " تحقيق ما للهند " مسك الختام على أبدع ما يكون المنهج. فلا غرابة في أن نجد هذا الكتاب يحتل المكانة الرائدة في التعريف بأديان الهند و فلسفاته و أن يكون كما يقول الدكتور " سيد حسين نصر" المصدر الوحيد للعالم لمعرفة ثقافة الهند و عقائده طوال العصور الوسطى.[14]

و يعد "كتاب الهند " وثيقة تاريخية إثنوجرافية.[15] إذ أنَ ما تميَز به الكتاب عمَا سبق نشره عن الهند ، أنَ البيروني لم يدرس طبيعة هذه البلاد و أحوال سكانها فحسب ، بل درس كذلك لغتها و آدابها في مختلف بيئاتها ، ووقف بنفسه على رسومها و تقاليدها. و هو فيما يكتبه عنها يعتمد على ما شاهده بنفسه و سمعه بأذنيه أكثر مما يعتمد على ما قرأه . و في هذا الصدد نجده يستهل كتابه بقوله : " إنما صدق القائل ليس الخبر كالعيان ، لأن العيان هو إدراك عين الناضر عين المنظور إليه في زمان وجوده و في مكان حصوله." [16]و رأينا أن البيروني قد وضع في هذه العبارة أساسا منهجيا هاما تشكَلت على أساسه انطلاقة " الدراسات الحقلية الإثنوجرافية " التي أدَت بدورها إلى نقلة كبرى من

الاتجاه النظري التطوَري في دراسة الحضارة الإنسانية ، الذي ساد الفكر الأوروبي خلال القرن التاسع عشر بصفة خاصة ، إلى دراسة المجتمعات الإنسانية كل على حدة ، و ذلك عن طريق الاتصال المباشر بالمكان و الناس ، و رصد وقائع الحياة اليومية ، أي عن " طريقة العيان و ليس الخبر" ، على حد تعبير البيروني. و عن طريق الملاحظة بالمشاركة على حد تعبير الأنتروبولوجيون الغربيون.

إن الأخبار المدوَنة تظلَ – عند البيروني – رافدا مهمَا في معرفة بقية الحضارات و الديانات ، حيث يقول:" فمن أين لنا العلم بأخبار الأمم لولا خوالد آثار القلم؟ ".[17] و لذلك رأى أنَ : " الكتابة نوع من أنواعه يكاد أن يكون أشرف من غيره." [18]و لكن هذا الرافد المعرفي محدود الآفاق و مليء بالنقائص و ذلك من منظورين: فهو من جهة يجمع صحيح الأخبار و فاسدها و يمزج بين الواقع و الخيال ، و من جهة ثانية لا يستجيب إلى تطوَر الزمن و تغيَر المنظومات. فالظاهرات الدينية متغيرة و متطورة و لذلك أقرَ البيروني بأنه : " لولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان".[19] وعلى هذا الأساس نظَر صاحب " تحقيق ما الهند " لمنهج يقوم أساسا على المعاينة. و لو دقَقنا النظر في تعريف البيروني للعيان لأدركنا أهمية هذا المنهج في دراسة الأديان و آية ذلك أنَ : " العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده و في مكان حصوله." [20]

و لعلَ مما يمكن أن يعتبر مفتاحا لشخصية البيروني العلمية المنهجية ما يقوله في كتابه " الآثار الباقية عن القرون الخالية " : " فإن المنهج الذي كنت أتَبعه لا يسمح لي بخلط الشك باليقين ، والمجهول بالمعلوم." [21]

إنَ هذا النص يلخَص لنا بالتأكيد العقلية المنهجية للبيروني خير تلخيص ، فهو رجل لا يريد أن يطلق القول إطلاقا بدون أن يتيقَن من مصادره ، و من صدقه ، و بدون أن يكون على علم شامل

بموضوع حديثه ، فرجل يبدأ هذه البداية يمكن أن ينتظر منه الكثير ، و بالفعل قدَم البيروني الكثير فيما يتعلق بالمنهج بصفة عامة و بالمنهج الأنتروبولوجي بصفة خاصة. إنه لم يكتب كتابه عن الهند وأديانها و علومها إلا بعد أن بذل جهده في معرفة هذا البلد و أديانه و فلسفته و علومه.

و ما يراد من المنهج الأنتروبولوجي أكثر ممَا صنعه البيروني من تعلَمه لغة القوم الذين يريد دراسة ثقافتهم و دينهم ، و فلسفتهم ، و علومهم ، و العيش بينهم ،و ملاحظة أمورهم ، و ملاحقة خواصهم و عوامهم ، و تأمَل سلوكهم و معاملاتهم ، و دراسة طبائعهم و أخلاقهم ، و بحث فلسفتهم و مبادئ ثقافتهم ، و التعرف على نظمهم و أنماط حياتهم ؟ كل هذا هو ما فعله البيروني و يشهد به كتابه " تحقيق ما للهند" ، و يتجلى لكل من يقرأه و يتأمله ، فلا عجب أن نجد أحد الأنتروبولوجيين المسلمين المعاصرين ، ألا و هو " أكبر أحمد " يقول عن البيروني إنه:" أوَل عالم أنتروبولوجي مسلم ." [22]و قد أحسن الدكتور " فتح الله مجتبى " عندما قال : " لقد وطَن البيروني نفسه لكتابة تحقيق ما للهند بعد أن قام بزيارات مكثَفة للأرجاء الجنوبية و الغربية للهند ، و بعد أن نذر ثلاثة عشر عاما كاملا لدراسة علوم الهند و أديانها و مدارسها الفلسفية في لغتها الأصلية ، و ليس هناك دولة متحضَرة في ذلك الوقت و حتى بعده بقرون أنتجت في الحياة الدينية و الاجتماعية لشعوب غريبة عنها مثل هذا العمل الذي لا نظير له في سعة مجاله ، و تنوَع موضوعاته ، و منهج المقارنة الذي تبناه ، و فوق هذا كله في بصيرة مؤلَفه المحايدة و العميقة . " [23]

علاوة على ما تقدَم كان البيروني محيطا إحاطة جيَدة بمعارف عصره ، الأمر الذي انعكس على مادة كتابه عن الهند ، و كتبه الأخرى على حد سواء ، و كان حريصا كل الحرص على التثبَت و اليقين في كل ما ينقل أو يقرأ ، فلا يتردَد في طلب إيضاح ما يغمض عليه أو يتشكَك في صحته. إن إقامته

الطويلة بالهند ، مكّنته من الدراسة المتعمّقة للمجتمع الهندي. و نحن في الإثنوجرافيا نرى في الإقامة بالمجتمع محل الدراسة مدة لا تقل عن عام بأيّ حال من الأحوال شرطا أساسيا للقيام بالدراسة الإثنوجرافية الحقلية ، [24]حتى يتسنى للباحث الوقوف على وقائع الأمور الحياتية لمجتمع الدراسة على مدار السنة.

ثانيا: الحكاية.

لقد عبّر البيروني نفسه عن هذا المنهج في مقدمة "كتاب الهند " تعبيرا واضحا حيث قال : " فما وجدت من أصحاب كتب المقالات أحدا قصد الحكاية المجرّدة من غير ميل و لا مداهنة سوى أبي العباس الإيرانشهري." [25]

و الملاحظ أن اختيار منهج الحكاية لم يكن اعتباطيا أو مجرّد صدفة ، لأنّ الحكاية تتعلّق بالأقوال و الأفعال على حدّ السواء ، و لقد وجدنا في لسان العرب ما يؤكّد هذا المعنى إذ جاء فيه : " الحكاية كقولك حكيت فلانا و حاكيته ، أي فعلت مثل فعله ، أو قلت مثل قوله ، سواء لم أجاوزه ." [26]و بهذا المعنى فإنّ الحكاية تعني بالأساس أن ننقل ما نراه أو نسمعه أو نقرأه بكل موضوعية و تجرّد دون تغيير أو تحريف أو تضخيم أو تحقير. و هذا العمل ليس بهيّن ، لأنّه يتطلّب تحرّرا من أسر الذاكرة و تدخّل العاطفة و مركزية الانتماء . و لقد أدرك البيروني صعوبة هذا المبتغى ، و بيّن عسر تطبيق هذا المنهج على كامل الكتاب ، و لكنّه مع ذلك أكّد التزامه به في أغلب الحالات. و في هذا الإطار أعلن : " و أنا في أكثر ما سأورده من جهتهم حاك غير منتقد إلاّ عن ضرورة ظاهرة ." [27]

نضيف أيضا ملاحظة على عنوان الكتاب بذاته ، و ما ينطوي عليه من مغزى منهجي . فالعنوان يفصح عن موضوع الكتاب بأنه معاينة مباشرة لمجتمع الهند مع إبراز أفكاره ، و معتقداته ، وأنشطة أهله ، و نظم حياتهم ، دون إصدار أحكام تقويمية تمليها ثقافة الكاتب و خلفيته الدينية . وهنا و في العنوان ذاته ، تبرز أساسية منهجية هامة في الدراسات الإثنوجرافية ، و تلك هي عدم الحكم على الأشياء من منظور الباحث العقائدي أو الحضاري ، و إنما ضرورة وصف الأشياء على ما هي عليه ، و في إطار فهم الناس إيّاها ، و ليس تصوّر الباحث ذاته .و بمعنى آخر ، فالاثنوجرافيا لا تسعى إلى التقويم ، و إنما إلى تقديم صورة واقعية و تقريرية للأمور الحياتية لمجتمع ما خلال فترة زمنية معينة .

ولقد نبّه البيروني إلى ارتباط الخبر بحالة الإخباري و مشاغله ، فهو إما متعاطف مع الملّة موضوع الدرس أو متحامل عليها ، و هذا ما يؤثّر في طبيعة الأخبار و صدقها ، و نجده يقول في هذا الشأن : "و كأنَ الباعث على فعله من دواعي المحبة أو الغلبة، أو من دواعي الشهوة و الغضب المذمومين." [28]

و عن موضوع الكتاب و منهجه فلقد نجح البيروني في إبراز صلة الربط بينهما، و إيضاح سبل تحقيق هدفهما . و لقد حدّد قصده في عبارات موجزة في بداية و نهاية كتابه . ففي مستهل كتابه كتب يقول : " ليس الكتاب كتاب حجاج و جدل حتى أستعمل فيه أيراد حجج المقدَم و مناقضيه الزائغ منهم عن الحق ، و إنما هو كتاب حكاية فأورد كلام الهند على وجهه ، و أضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقارنة بينهم." [29]و إننا لنعطي عبارة " أورد كلام الهند على وجهه "، أهمية خاصة نظرا لاتفاقها تماما مع ما تصبو إليه الإثنوجرافيا المعاصرة من رصد ثقافة مجتمع معيّن يراها و يفسّرها أهل هذا المجتمع. هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى نجد أن البيروني يحدّد هدفه في نهاية الكتاب أيضا ،

وفي إيجاز مع الوضوح حين يقول : " و نرى فيما قصصناه كفاية لمن أراد مداخلة الهند فخاطبهم في المطالب بحقيقة ما هم عليه." [30]و نتساءل هنا أليست المداخلة مع الشعوب على أساس فهم حقيقة ما هم عليه هي بالأمر الذي سعى الإثنوجرافيون دائما إلى تحقيقه ؟

ثالثا: المقارنة:

إذا كان البيروني قد استخدم المنهج الأنتروبولوجي بصورة علمية و ربما بطريقة تتناسب مع المفهوم العلمي الحديث و لأوَل مرَة في التاريخ ، فإنه كذلك استخدم منهج المقارنة بمفهومه العلمي الدقيق خير استخدام ، مع فارق بينه و بين العامري فيه . فالعامري يستخدم المقارنة ليتوصَل بها إلى إحقاق الحق ، و إظهار بطلان الباطل ، و هذا هو المنهج الإسلامي التقليدي بشأن هذا المنهج ، أمَا البيروني فيكتفي بالمقارنة كوسيلة للتوصَل إلى المعرفة الدقيقة ، و إدراك أعمق ، و فهم أوضح للموضوع قيد البحث ، و إن لم يغب عن باله قضية التوصل إلى الحق ، و هي قضية تركها للآخرين مكتفيا بتوفير المعلومات الضرورية لهم . و هذا يصبَ بحق في عمق المنهج الأنتروبولوجي.

و في إطار بحثه لثقافة الهنود و نظم مجتمعهم ، و علمه باللغة الفارسية ، و قراءته لكتب التراث اليوناني ، كان البيروني يقارن بين حضارة الهند و حضارتي اليونان و الفرس أيضا . و في هذا الشأن نجده يقول في كتاب الهند : " و إنما هو كتاب حكاية فأورد كلام الهند على وجهه ، و أضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقارنة بينهم ." [31]

و لعلَ الدكتور " فتح الله مجتبى " قد أحسن التعبير عن حياد البيروني العلمي ، و دقَته المنهجية ، و نزاهته الموضوعية عندما قال : " إن كتاب الهند ليس سردا تاريخيا لآراء الهنود الدينية

والعلمية و لأخلاقهم و عاداتهم و لنظمهم الاجتماعية فحسب ، فالبيروني حاول معالجة هذه القضايا بمنهج المقارنة و في إطار عالمي ، و على الرغم من أنه يدرك جيدا الاختلافات الموجودة بين الهندوس والمسلمين في عاداتهم و لغاتهم ، و طرق تفكيرهم ، و مفاهيمهم الدينية و الاجتماعية ، فإن أحكامه لم تتأثر بالميول الضيقة ، و على طول كتابه يحاول أن يقارن المفاهيم الهندية بآراء فلاسفة اليونان ، وفي بعض الأحيان بآراء المانوية و مفكري المسلمين و الصوفية . و إنَ استخدام منهج المقارنة يسهَل عليه شرح المشكلات الثقافية و الفلسفية و الدينية التي يناقشها . و البيروني في معالجاته ليس فقط مجرَد عارض أو سارد ، و إنما في أغلب الأحيان يقدَم وجهة نظره الخاصَة المستقلة حول النظريات الفلسفية و العلمية و يناقش قيمة ملاحظته هو أيضا ، و يحاول جاهدا أن يكون محايدا ، و مجرَدا عن الأحكام المسبقة ، و لا يسمح لمواقفه الدينية الخاصة ، و قناعاته أن تؤثَر في أحكامه . إنَه يحاول بصدق أن يقدَم للعالم الإسلامي صورة صادقة للقيم الروحية الهندوسية و لما حقَقوه في مجال التفكير الفلسفي ، و مساهماتهم في مختلف فروع المعرفة الإنسانية ليفتح الطريق أمام التفاهم المشترك و الحوار العلمي بين المجتمعين الإسلامي و الهندوسي.[32]

و لعلَ الدوائر العلمية تستطيع أن تقدَر هذه المنهجية الرائعة و الرائدة لدى البيروني ، إذا وضعت في اعتبارها أنَ البيروني كتب ما كتب في وقت كان المسلمون فيه سادة العالم حيث لا قوَة تخيفهم أو تقف في طريقهم ، و كان هو نفسه في رعاية سلطان المسلمين محمود الغزنوي . و على الرغم من مضي ما يقرب من ألف عام فإنَ منهج البيروني لا يزال غضَا طريا ، يعطي الكثير لأبناء اليوم و الغد. و هذا ما يجعلني أقول ، إنَ البيروني سيبقى مفخرة من مفاخر الإسلام ، و مأثرة من مآثره في

الجانب المنهجي لمقارنة الأديان ، و رائدا عظيما من رواده ، و علما بارزا من أعلامه ، و معلما عظيما من معالمه .

خاتمة:

لقد أوضح البيروني بصفة جلية المنهج الإثنوجرافي ، بل حتى الأنتروبولوجي ، و وضع العديد من أساسياته التي يحرص الإثنوجرافيون المعاصرون على الالتزام بها. فالإلمام بلغة مجتمع الدراسة ، والإقامة الفعلية بمكان الدراسة ، و مخالطة الناس و مشاركتهم في أنشطتهم و أعمالهم ، و الوقوف على فعاليات سلوكهم و أساس معتقداتهم من واقع تفكيرهم ، و الاستعانة بأهل الثقة ، و كافة المصادر الأخرى في استخبار أمر المشاهد و المروى مع الاستعانة بالمقارنات لاستجلاء أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات ، كلَها أمور قد تبلورت الآن كأساسيات المعمل الإثنوجرافي في شكله المعاصر.

و عليه فإنَ علم الإنسان أو علم الأنتروبولوجيا الذي يدَعي الغرب أنَه علم غربي لم يعرف إلا منذ قرنين من الزمان ، إنَما هو علم عربي إسلامي أصيل . لأنَ الاهتمام بالإنسان و بكلَ ما يختص به هو محور الديانات ، و رسالات الأنبياء و المرسلين عليهم السلام ، و الكتب السماوية . لكن وبما أنَ الكثير من التحريف و التزوير قد طرأ على الرسالات و الكتب السابقة ، فلم يبق لنا إلا مصدر واحد " لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " (فصلت: 42). ألا وهو القرآن الكريم . و بذلك يصبح علم الإنسان علما إسلاميا بامتياز ، وضع أسسه القرآن الكريم ، و وضحت هذه الأسس في الأحاديث النبوية الشريفة للنبي محمد صلى الله عليه و سلم ، ثم امتاز به الرحالة و المستكشفون المسلمون ، الذين جابوا مختلف الأصقاع من أجل البحث و التنقيب و المقارنة بين المجتمعات البشرية و بذلك كانوا أنتروبولوجيين بمعنى الكلمة قبل أن يظهر هذا المصطلح في أوروبا.

و لقد قام هؤلاء العلماء المسلمون برحلاتهم اهتداءا بقوله تعالى : " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق." (العنكبوت: 20). و قوله تعالى : " و من يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا و سعة." (النساء: 100). و قوله تعالى: " يا أيَها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا." (الحجرات: 12). لذا فقد طاف العلماء المسلمون العالم ، و درسوه جيَدا ، و سجَلوا و دوَنوا كلَ شيئ عن شعوبه . لذا فإنَ أسس و أهداف الأنتروبولوجيا الحديثة قد حقَق أهدافها العلماء المسلمون قبل أن يظهر هذا المصطلح ، و قبل أن يصبح علما و اختصاصا تساق له النظريات ، و تكتب حوله الأبحاث ، و له فروعه ، و اختصاصاته في الكليات و الجامعات .

المصادر و المراجع:

1- جميل صليبا، المنطق، منشورات عويدات، لبنان، الطبعة الثانية، 1967، ص 67.

2- جميل صليبا، المرجع نفسه، ص 670.

3- محمد محمد قاسم، المدخل إلى فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، 2003، ص 64.

4- محمد جمال الدين الفندي، دراسات في الحضارة الإسلامية ، بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ، تراث المسلمين في مجال العلوم ، ص 274.

5- رغم حداثة الأنتروبولوجيا التي لم تتبلور كدراسة متخصصة ، و علم مستقل عن الفلسفة الاجتماعية إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، فإن وصف ثقافات الشعوب و الحضارات الإنسانية ، و عقد المقارنات بينها قد جذبا انتباه كثيرا من المفكرين و الكتاب منذ قديم الزمان. و يعتبر مؤرخو الأنتروبولوجيا تلك المعرفة بمثابة جذور أولية للدراسات الإثنوجرافية التي تشكل قاعدة هامة للمقارنة بين النظم الاجتماعية.

و مما هو جذير بالذكر أن الغرب لم يكشف عن الحضارات الشرقية القديمة ، و لم يبدأ في فحص مضامينها الثقافية فحصا عميقا إلا عن طريق حركة الاستشراق التي اتسعت مجالاتها و اهتماماتها في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر بصفة خاصة.

و تجدر الإشارة هنا إلى أنه بينما كانت أوروبا تعيش ما يطلق عليه تاريخيا "بفترة العصور الوسطى المظلم" ، ازدهرت "الحضارة الإسلامية". بحيث أصبح من الضروري عقب الفتوح العربية الإسلامية ، الاهتمام بإدارة البلاد ، الأمر الذي جعل وصف الأقاليم و العناية بها جزءا من أخبار الفتوح و المغازي ، كما أصبح ذلك من ضرورات التنظيم و الحكم أيضا.

6- هكذا فعل رواد الإثنوجرافيا الغربيون. فقد توجه البريطاني "رادكليف براون" إلى جزر الأندمان عام 1906، و مكث بها مدة عامين. و من الجدير بالذكر أن الإثنوجرافي البريطاني الشهير "برنسلومالينوفسكي"، و هو من أصل بولندي ، قد مكث في جزر الروبرياند زهاء أربع سنوات متواصلة (1914- 1918) ، و ذلك بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى. و قد مكنته هذه الإقامة الدراسية الطويلة من إجراء دراسة مركزة متعمقة لأهالي هذه الجزر، كما تسنى له من الخبرة العملية ما أهله لوضع أساسيات منهج جمع المادة في الدراسات الإثنوجرافية الحقلية. و نشير أيضا

على سبيل المثال إلى أسفار و رحلات "فرانز بواز"، مؤسس المدرسة الأنتروبولوجية الأمريكية، لجمع المادة الإثنوجرافية ، و لا نغفل أيضا ذكر رحلة "مارسيل جوريل" الشهيرة التي قام بها ما بين داكار و جيبوتي في الثلاثينات من هذا القرن ، و التي كان لها تأثر كبير في وضع أساسيات المنهج الإثنوجرافي لدى الفرنسيين. لمزيد من المعلومات عن هؤلاء الإثنوجرافيين، طالع قصة الأنتروبولوجيا، الفصل الخامس خاصة.

7- يعرف هذا الكتاب أيضا ب " كتاب الهند "، ألفه البيروني بعد انتقاله إلى بلاط السلطان محمود الغزنوي (421 هـ)ب " غزنة "، و هي " كابل " عاصمة أفغانستان اليوم. و لقد استفاد من مرافقته السلطان الغزنوي في فتوحاته العسكرية في بلاد الهند. و يبدو من خلال ما صرّح به البيروني في مقدمة كتابه أنه كتب هذا الكتاب استجابة لطلب أستاذه أبي العباس الإيرانشهري، حتى يصحّح فيه ما وقع فيه أستاذه من أخطاء بسبب نقله لروايات العلوم.

8- Athar al Baqiya of Biruni(Sachaus Englhsh t)London – 1879.

نقلا عن : دين محمد محمد ميرا ، في علم الدين المقارن ، مقالات في المنهج ، دار البصائر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2009 ، ص 68.

9- أبو الفتوح محمد التوانس عن كتابه "البيروني" ،(الكتاب السادس و الثلاثون من إصدارات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة 1386 –1967). ص 148 .

10- Science and Civilisation Islam by Sayyed HussainNasr (Suhail Academy – Lahore).p 50.

نقلا عن: دين محمد محمد ميرا ، في علم الدين المقارن ، مقالات في المنهج ، دار البصائر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2009 ، ص 67.

11- F. Mujthbai : Hindu Muslim Cultural Relations (India 1978), p14 - 18. نقلا عن: دين محمد محمد ميرا ، في علم الدين المقارن ، مقالات في المنهج ، دار البصائر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2009 ، ص 68.

12- عبد العزيز عبد الحق حلمي ، " المقدمة الدراسية للرد الجميل للإمام الغزالي، نشرة الأزهر ، 1393 – 1973 ، ص 77.

13- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، تحقيق ما للهند ، دائرة المعارف العثمانية ، ت حيدر آباد الدكن ، الهند ، 1377 هـ 1985م. ص 37.

14- سيد حسين نصر ، نفس المرجع السابق، ص 50.

15- اهتم المستشرقون و الدارسون المسلمون بأعمال البيروني اهتماما كبيرا. و تجدر الإشارة هنا إلى المستشرق الألماني " إدوارد سخاو " الذي حقّق هذا الكتاب و نشره لأول مرة سنة 1887 في ليبزج ، و قد كتب مقدمة تحليلية قيمة لهذا العمل. ثم صدر الكتاب سنة 1958 ، عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الركن دون تحقيق ، و في سنة 1983 نشرت دار "عالم الكتب للطباعة و النشر و التوزيع " ببيروت ، دون تحقيق أيضا.

16- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني ، " تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة "، المقدمة، ص 1.

17- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، المرجع نفسه، ص 13.

18- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، المرجع نفسه، ص 13.

19- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، المرجع نفسه، ص 13.

20- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، المرجع نفسه، ص 13.

21- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، الُآثار الباقية عن القرون الخالية، الترجمة الإنجليزية، ص 68.

22- Discovering Islam by Akber S Ahmed (London – 1988), p101

عن: دين محمد محمد ميرا ، في علم الدين المقارن ، مقالات في المنهج ، دار البصائر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2009 ، ص 72.

23- Hindu Muslim Cultural Relations, p 21

نقلا عن: دين محمد محمد ميرا ، في علم الدين المقارن ، مقالات في المنهج ، دار البصائر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2009 ، ص 73.

24- يتلقى الآن الإثنوجرافي تدريبا كافيا في الجامعات و المعاهد المتخصصة قبل شروعه في البحث، و يتضمن هذا التدريب الإلمام بلغة مجتمع الدراسة، و أصول جمع المادة الحقلية. و إعداد المونجراف,.

25- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني،" تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة "، ص 43.

26- ابن منظور ، لسان العرب، مادة "حكي".

27- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، " تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة " ، (باب في ذكر أحوال الهند و تقريرها أمام ما نقصده من الحكاية عنهم). ص 22.

28- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، المرجع نفسه، ص 13.

29- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، المرجع نفسه، ص 14.

30- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، المرجع نفسه، ص 346.

31 - أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، المرجع نفسه، ص 15.

32- Hindu Muslim Cultural Relations, p 29 – 30. نقلا عن: دين محمد محمد ميرا ، في علم الدين المقارن ، مقالات في المنهج ، دار البصائر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2009 ، ص 75.